المدارس التاريخية: برلين، السوربون، استراسبورغ
من المنهج إلى التناهج

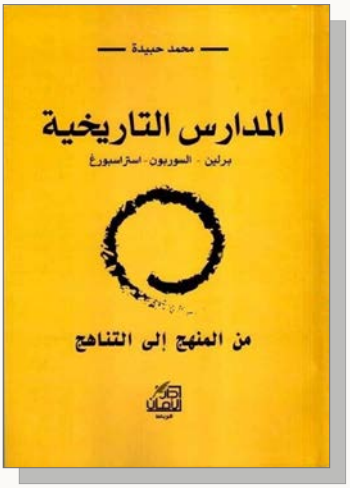

محمد أبـرهموش
أستاذ التعليم الثانوي – وزارة التربية الوطنية
باحث في التاريخ الاجتماعي – كلية الآداب
القنيطرة – المملكة المغربية

بيانات الكتاب

محمد حبيدة
المدارس التاريخية: برلين، السوربون، استراسبورغ.
من المنهج إلى التناهج

دار الأمان
الرباط، الطبعة الأولى ٢٠١٨
٢١٦ صفحة

كلمات مفتاحية:
المدارس التاريخية، أوروبا، المنهج، التناهج، الكتابة التاريخية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0052966

مقدمة

قطع البحث التاريخي أشواطًا مهمة في القرون الماضية الأخيرة، سواء على المستوى النظري أو المنهجي أو العملي، مما ولد نماذج إسطوغرافية، لا يمكن للمهتمين بالمناهج وبالكتابة التاريخية تغافلها. فهذه المدة الزمنية، لم تخل من تحولات متواصلة، فعفعت النظريات والمناهج والنتائج، إذ من بناء المنهج التاريخي إلى البحث عن التناهج، شهدت المعارف الإنسانية تدافعات إبستمولوجية، ساهمت في ولادة مدارس تاريخية رائدة. من برلين إلى السوربون ثم استراسبورغ. من الوضعانيين إلى المنهجيين وصولا إلى الحولياتيين. في هذا المبحث، الذي تفوح منه قضايا عميقة وسياقات غزيرة، ينخرط محمد حبيدة بكتابه: "المدارس التاريخية"، الصادر عن دار الأمان هذه السنة (٢٠١٨).

يتكون متن الكتاب من ٢١٦ صفحة، يتتبع فيها المؤلف بحس نقدي، إشكالية المنهج والتناهج في الإسطوغرافيا الأوروبية والغربية. وينتظم هندسيا في قسمين: قسم أول، يقارب طور مدرستي برلين والسوربون: الوضعانية والمنهجية/الوثائقية. وقسم ثان، يتوقف فيه أكثر عند تجربة الحوليات الفرنسية وآثارها، ليس على مستوى نمط الكتابة التاريخية فحسب، بل كذلك على مستوى تلاقحاتها وانفتاحها على مناهج العلوم الاجتماعية الأخرى، أي التشوف إلى تحقيق التناهج، قبل أن يخوض في أزمتها الإبستمولوجية أو منعطف "التاريخ المفتت"، بتعبير أطروحة فرانسوا دوس(١). إضافة إلى مقدمة عامة، تجود على القارئ بالمفاتيح الأولية لمتابعة الإنتاج الإسطوغرافي في الغرب. ثم خاتمة نقدية تركيبية، تنتصر لأهمية الكتابة في إنتاج المعرفة التاريخية.

ومن خلال العنوان، يبدو أن هذه الدراسة تنصهر في بوتقة اهتمامات مؤلفها، ذات الصلة بالمناهج والترجمة والأنثربولوجيا التاريخية والتاريخ الاجتماعي. إن الكتاب في الأصل، عبارة عن محاضرات ودروس وسيمنارات، راكمها الأستاذ محمد حبيدة منذ ثلاثين سنة مضت، أي المدة التي مارس فيها تدريس المناهج التاريخية، قبل أن يعمل على تحويلها إلى بحث أكاديمي موجه للباحثين والطلاب، يبرز فيه مدارات الخطاب التاريخي. من المدرسة الوضعانية، إلى المنهجية، إلى الحوليات. من برلين، إلى السوربون، إلى استراسبورغ. من تأسيس المنهج، إلى ممارسته، إلى البحث عن التناهج. هو ما يعبر عنه العنوان الفرعي للكتاب: "من المنهج إلى التناهج". إنه مسار التجديد والابتكار والتأثير والتأثر، تظهر فيه الكتابة التاريخية كأنها دائرة مفتوحة،

متواصلة، متجددة باستمرار[٢]، كما ترمز لها واجهة غلاف الكتاب.

والجدير بالذكر، أن المؤلف ذيّل مصنفه بملحق يضم باقة من النصوص، بلغ عددها ٤٠ نصًا مترجمًا، وتشغل حوالي ٦٠ صفحة من حجم الكتاب، تغوص في إبستمولوجيا وقضايا البحث الإسطوغرافي. وهي من إنجاز باحثين في تخصصات العلوم الاجتماعية والإنسانية. من أمثال: إميل دوركايم، وشارل سنيوبوس، ومارك بلوك، ولوسيان فيفر، وفيرناند بروديل، وكلود ليفي ستراوس، وجاك لوغوف، وميشال دوسيرتو، وبول ريكور، وغيرهم. إن هذه الشبكة من النصوص، التي لمها الكاتب وخبرها أثناء تدريسه للمناهج التاريخية، لمدة تزيد عن ربع قرن، قد مكنته من التوصل إلى تقنية بيداغوجية تساعد الطلاب على تعرّف واستيعاب أساسيات المدارس التاريخية، انطلاقا من نصوص أو فقرات مرجعية من مختلف خطابات المنهج والتناهج[٣].

في سياقات المنهج التاريخي:

من الوضعانيين إلى الوثائقيين

حاول المؤرخ محمد حبيدة، في القسم الأول أن يجول بالقارئ، المتخصص وغير المتخصص، في فضاء تقدم الدراسات التاريخية، بالتركيز على العوامل الممهدة لوضعانية القرن التاسع عشر، عصر التخصص، حين غلب التجريب على التجريد، مما أتاح إمكانيات لبناء قواعد المنهج العلمي على الملاحظة والتجربة. هذا ما تحقق أولاً في مجال علوم الطبيعة، قبل أن تتأثر بها علوم الإنسان ثانيا، في إطار بناء قواعد موضوعها ومنهجها.

على مستوى التاريخ، يبرز المؤلف أن مخاض ظهور التاريخ كعلم قائم بذاته، كان عسيرًا، فقد استلزم ذلك المرور من مرحلتين: التحرر من التصور الديني من جهة، حيث صارت الكتابة التاريخية نمطًا علميًا، وواقعيًا، وعلمانيًا. ثم الابتعاد ما أمكن عن الفلسفة والنظريات من جهة ثانية، بحيث لم يعد المؤرخ يهدف إلى سبر منطق تطور الحضارات والشعوب، بل أصبح عمله ينحصر في ملاحقة سير التاريخ وتفاصيلها الدقيقة. ضمن هذه اللقطات الابستمولوجية المثيرة، يرى صاحب الكتاب، أن القرن الثامن عشر، عصر الفلسفة، حرّر التاريخ من اللاّهوت، بينما القرن التاسع عشر، قرن العلم بامتياز، خلّص البحث التاريخي من السجالات الفلسفية بفضل توجهات الوضعانيين بألمانيا. ذلك أن المؤرخ توشح بزي جديد، "زي العلماني والعالِم، زي المحلل والناقد"[٤].

يقارب محمد حبيدة في هذا العمل، وفي أعمال أخرى إبستمولوجيا المناهج وعمل المؤرخ، قصد تقديم إضاءات تكشف عن مجاري المعرفة التاريخية في أوروبا قبل القرن التاسع عشر. من عصر الفلسفة إلى عصر العلم والتاريخ الوضعاني، وصولاً إلى القرن العشرين، قرن التاريخ الحولياتي، قبل أن ينتقل إلى استحضار نماذج واعدة في الكتابة التاريخية، من قبيل "التاريخ من أسفل"، والتاريخ المجهري أو "الميكروسطوريا". متسلحًا في ذلك بالمؤلفات الأصلية، التي اعتنت بقضايا المنهج والإسطوغرافيا، الفرنسية منها والإنجليزية والمترجمة من الألمانية إلى الإنجليزية. إضافة إلى اطلاعه على دراسات باللغة العربية تهم قواعد منهج التاريخ في أوروبا. ومن نافلة القول، أن الباحث نشر قبل سنوات نصوصا مختارة، عن توجهات إسطوغرافية متنوعة، نقلها إلى العربية في صيغة كتاب، بعنوان: "من أجل تاريخ إشكالي"، يتناهج مع العلوم الاجتماعية الأخرى، ويستحضر ورشي الذاكرة والعقليات[٥]. إنه هم معرفي يهدف إلى تحديث المعرفة التاريخية في الأوساط المغاربية والعربية، تصورا، ومنهجا، وكتابة.

يُعَدّ القرن التاسع عشر، حسب المؤلف، مرحلة مفصلية في محطات مهنة المؤرخ، خصوصا بين أروقة جامعتي برلين والسوربون الرحبة، بقيادة مؤسسي التاريخ الوضعاني، كالمؤرخ الألماني ليوبولد فون رانكه، أبو التاريخ المنهجي، وأنصاره بفرنسا، أمثال: إرنست لافيس، وشارل سنيوبوس، وشارل لونغلوا، وغابريل مونو، وكاميل جوليان. مع هؤلاء انتعش التاريخ الوضعاني ووصل أوجّه، ذلك بفضل تضافر الحس الأرشيفي الوطني والمنهج التاريخي المتبع في ألمانيا. وهو ما عبرت عنه بفرنسا تجربتا، "المجلة التاريخية" وكتاب "مدخل للدراسات التاريخية"، اللتان ركزتا على كتابة التاريخ، كتابة موضوعية علميا وصارمة منهجيا، تقوم على الوثائق، ولا شيء غير الوثائق المكتوبة الأرشيفية، كما أقر واضعو التاريخ المنهجي[٦]، مما أفضى إلى بروز صنف من الإسطوغرافيا، متقوقع على نفسه في رحاب الثانويات والجامعات، لا يتجاوز المكاتب المكيفة بتعبير لوسيان فيفر[٧]. بيد أنه رغم قصور هذا المنهج، وقوقعة إنتاجه في التاريخ الحدثي السياسي والعسكري والدبلوماسي، سواء في النموذج الألماني أو الفرنسي. فإليه يعود الفضل في تأطير عمل المؤرخ وابتكار قواعد علم التاريخ[٨]، بل وضعه أيضا، الحجر الأساس لكتابة "تاريخ توليفي يلم شتات ما تفرق في السابق من التآليف والدراسات، على نحو وصفي، حدثي، تحقيبي"[٩].

فكك صاحب الدراسة تحدي آخر، اعترض البحث التاريخي في نهاية القرن التاسع عشر، تمثل في السوسيولوجيا الدوركايمية، التي شنّ أنصارها نقدا لاذعا على المؤرخين والدراسات التاريخية. فقد عمل فرانسوا سيمياند على تحطيم المعبودات الثلاثة للمؤرخين: السياسي، الفردي، التسلسل التاريخي، مع إبداء رغبته في تاريخ إشكالي، تفسيري، اجتماعي، يهتم بالظواهر الاجتماعية والجماعات والمؤسسات[١٠]. إن هذا النقد يتقاطع بشكل كبير مع ما عدّده دوركايم من عيوب يتسم بها نهج الإسطوغرافيا الوضعانية، خاصة غياب المقارنة والتفسير. لقد دفع علم الاجتماع المؤرخين، إلى "إعادة صياغة تصوراتهم واستشكال موضوعاتهم وتنويع مصادر معطياتهم"[١١].

محطة ميلاد الحوليات وأفق التناهج

أمام كل التحديات التي أثارها السوسيولوجيون أمام المؤرخين، عمل مارك بلوك على تخصيب مقاربته التاريخية للأزمنة الوسيطية، بمفاهيم ومناهج ومقولات سوسيولوجية، كي "يستطيع الانتقال من المستوى الأفقي، مستوى الكتابة الإخبارية إلى مستوى عمودي، مستوى الكتابة المفاهيمية"[١٢]، لإنتاج نصوص توليفية تعالج الماضي من زاوية البنيات والعقليات بدل الأحداث والتفاصيل، اعتمادا على شبكة منهجية ثلاثية: السؤال والتركيب والمقارنة من أجل التفسير والتأويل. فـ"السؤال لاستنطاق الوثائق والتركيب لتجاوز التفاصيل وتوليد الأفكار، والمقارنة لتجاوز التوصيف وبلوغ درجة التفسير"[١٣]. إن هذه الرؤية النظرية من شأنها أن تحرر التاريخ من سجون الوثيقة المكتوبة والمنهج الوضعاني والتاريخ الحدثي. هو ما التزم به مارك بلوك في دراساته وأبحاثه الغنية، كأول مؤرخ يكتب التاريخ الاجتماعي المقارن: مقارنة أفقية مجاليا، ومقارنة عمودية زمنيا. هذا الواقع، يقول محمد حبيدة: هو الذي "أهل أرباب الحوليات الأوائل لزرع روح مفاهيمية حية في تخصص راكم قاعدة منهجية كانت قد شاخت من فرط التدقيق في السنوات والتفاصيل"[١٤].

في هذا الكتاب، المتسلسل زمنيًا، والمتداخل موضوعاتيًا وسياقيًا، يشرع الكاتب نافذتين على روافد مجلة الحوليات قبل نشوئها. متوقفا عند أفكار كل من المؤرخ جول ميشلي والفيلسوف هنري بير، اللذان لقحا الكتابة التاريخية بفيض نابض بالحياة وبروح مشبعة بالتركيب. فقد لامس الأول، تاريخ المجتمع والأحاسيس في كتاباته وأعماله المنفردة إبان عصره، التي تعج بوجدان وعقليات الهامشيين في السرديات التاريخية المصدرية والمرجعية.

أما الثاني: هنري بير، فقد هيج انتباه رواد الحوليات قبل نشوئها، إلى أهمية التركيب في التاريخ. إلى أهمية الانعتاق من التفاصيل وتوليد الأفكار لتفسير الماضي. إن هذا الرجل، يقر فيرناند بروديل، "هو إلى حد ما الحوليات قبل نشوئها منذ سنة ١٩٠٠، وربما منذ عام ١٨٩٠"[١٥]. لقد أقبل على تأسيس "مجلة التركيب التاريخي"، جامعا حوله باحثين من مختلف التخصصات، شغفا في تعميق النقاش وإنتاج أفكار توليفية، تجسر العلاقات بين العلوم الاجتماعية، وتجمع بين التحليل والمقارنة والتركيب. لكن رغم استجابة بعض المؤرخين لنداءات هنري بير، فقد اتجهت رؤاهم التناهجية، لا سيما مارك بلوك ولوسيان فيفر، نحو السوسيولوجيا والجغرافيا وعلم النفس الاجتماعي.

أفرد المؤلف القسم الثاني من دراسته لمدرسة استراسبورغ، ولا غرابة في ذلك. فقد شكل ظهور مجلة الحوليات الفرنسية سنة ١٩٢٩، منعطفًا مفصليًا في توجهات الدراسات التاريخية. لحظة بارزة في انتقال الإسطوغرافيا من الهوس بالمنهج إلى الرغبة في التناهج، بفضل أعمال الثنائي: لوسيان فيفر، المتخصص في التاريخ الحديث، ومارك بلوك المهتم بالقرون الوسطى، إذ بهدف تحقيق تقدم المعرفة التاريخية ومواجهة تحديات العلوم الأخرى، بلور الرجلان في فضاء جامعة استراسبورغ مشروع الحوليات، الذي يقوم على تخصيب المقاربة التاريخية بنتائج أبحاث علوم الاقتصاد والاجتماع والجغرافيا والنفس، لاستعارة المفاهيم وتمديد الإشكاليات وبسط الأسئلة. لقد "نقل هذان المؤرخان التاريخ من البحث في الأحداث إلى البحث في البنيات"[١٦]، مما استدعى توظيف شواهد تاريخية متنوعة، ليس الوثيقة المكتوبة الأرشيفية فحسب، بل كل ما خلفه الإنسان من آثار مادية وغير مادية، أي "كل ما قاله الإنسان، وما كتبه أو ما صنعه"[١٧].

وبصفة عامة، يُنبه محمد حبيدة إلى أن المتقصي لحصيلة إنتاجات مارك بلوك ولوسيان فيفر، لا شك أنه يتحسس انشغالهم الكبير بقضايا المنهج التاريخي. ألّف الأول بحثا منهجيا "دفاعا عن التاريخ"[١٨]، أما الثاني فقد نسج مقالات منهجية أدمجت بين دفتي كتابه: "معارك من أجل التاريخ"[١٩]، بيد أنه رغم اقبالهم المشترك على شق طريق الحوليات بالعديد من المباحث والإشكاليات التاريخية، فقد اختلفا في وجهة الانفتاح والاقتباس. ففي الوقت الذي استحضر بلوك الخلفية السوسيولوجية الدوركايمية، اقترب فيفر من الجغرافيا الفيدالية الإمكانية في البداية، قبل أن يستقر اختياره على السيكولوجيا الاجتماعية، لفض بكرة تاريخ الأنساق الثقافية والتمثلات والحساسيات الجماعية المهمشة.

لقد حذق هذان المؤرخان، رفقة مؤرخين شباب ومخضرمين، في تشييد ونشر ملامح تيار إسطوغرافي مجدد، خلف العديد من الإنتاجات والانتصارات في معاركه المفتوحة من أجل التاريخ والتناهج بين علوم الإنسان، خاصة حين خفتت أصوات علم الاجتماع والجغرافيا، بعد وفاة السوسيولوجي إيميل دوركايم والجغرافي فيدال دولابلاش.

عاشت الحوليات منذ تأسيسها سنة ١٩٢٩ تغيرات كثيرة في العناوين الفرعية لمجلتها[٢٠]. هو ما يفصح حسب أحد الباحثين، "عن التحولات النظرية والمنهجية الأساسية في حياة هذا الاتجاه التاريخي. ويكفي لإدراك ذلك التمعن في دلالة هذه العناوين وتطورها"[٢١]. نعم لا شك في ذلك، فعناوينها الفرعية تعبر عن معارك معرفية خاضها الخطاب الحولياتي عبر تاريخه الفكري الطويل، وانتصر فيها مرارًا بفضل تعاقب أجيال من المؤرخين على إدارة المجلة، واصلوا التناهج على جبهات علمية مختلفة، ما مكنهم من التكيّف مع التحديات المعرفية والمستجدات النظرية[٢٢]. هو ما لعب كذلك، دورًا كبيرًا في سمعة الحوليات وانتشارها خارج فرنسا، حتى أصبح لها ممثلون ومنتسبون في كل أنحاء العالم[٢٣].

إذا كان جيل ثنائي استراسبورغ، تعاطى لأوراش التاريخ الاجتماعي والثقافي، فقد ركزت أعمال الجيل الثاني من الحوليات على التاريخ الاقتصادي والثقافة المادية بقيادة

فيرناند بروديل، الذي عمل على توسيع مساحة التناهج والحوار بين العلوم الاجتماعية. كما ابتكر تصورا ثلاثيا للزمن التاريخي: الزمن الجغرافي أو الأمد الطويل، الزمن الاجتماعي أو الأمد الدوري، الزمن الفردي أو الأمد القصير. أي من البنيات إلى الأحداث مرورًا بالظرفيات[٢٤]. يشير هذا التقطيع الزمني إلى تعدد وجهات التناهج والاقتباس من علوم مجاورة، كالجغرافيا وعلم الاقتصاد والسوسيولوجيا والأنثربولوجيا.

منح بروديل أهمية كبيرة للزمن الطويل، بغرض مواجهة بريق التحليل البنيوي مع الأنثربولوجي كلود ليفي ستراوس. هذا على الأقل ما تعبر عنه أطروحته: "الحوض المتوسط والعالم المتوسطي في عهد فيليبي الثاني"، التي ناقشها سنة ١٩٤٧ تحت إشراف أستاذه لوسيان فيفر. إضافة إلى كتابه: "الحضارة المادية والاقتصاد والرأسمالية" سنة ١٩٦٧. يقول حبيدة: "تبقى دراسة البنيات المادية هي الخيط الناظم بين الكتابين، وذلك بفضل الاحتكاك الكبير والمثمر مع الماركسية والبنيوية"[٢٥]. إن الأمد الطويل يتصل بمفهوم البنية. فهو تاريخ بنيات مادية وذهنية شبه ثابتة، بطيئة، ومتكررة. إنه تاريخ شمولي انعكس كثيرا على كتابات ثلة عريضة من المؤرخين في فرنسا وأوروبا، بل ذاع صيته في العالم، وألهم العديد من الباحثين والجامعات. فأنشئت عدة مراكز علمية للبحث في التاريخ الاقتصادي والحضارات في أوروبا وخارجها. هنا إذن، "كان اللقاء مع كليو وهي ملهمة تأخذ شكل شبح يخيم على عقول عالمنا الحديث"[٢٦].

بيّن محمد حبيدة أنه مع الجيل الثالث من الحوليات، في السبعينيات من القرن العشرين، غير مؤرخو الحوليات عدسة التناهج، من التاريخ الشمولي نحو التاريخ الأنثربولوجي أو الأنثربولوجيا التاريخية، في إطار مشروع "التاريخ الجديد"، الذي تزعمه جاك لوغوف باهتمامات تُشرّح حقول الذهنيات والمخيال والرموز، مما دفعه إلى تبني الحس الأنثربولوجي، للغوص في ثنايا الطقوس والسلوكيات والتمثلات في القرون الوسطى.

لقد وصلت رغبة التناهج حد التخمة في هذه المحطة، بفعل الاقتباس المفرط لمفاهيم العلوم الاجتماعية، خاصة الأنثربولوجيا. فأمست الأبحاث التاريخية مولعة بتاريخ العقليات أو الذهنيات. عبارة عن خليط من الفكر الإثنولوجي والفلسفي وعلم النفس الاجتماعي. من أجل ذلك وظف الحوليايتون قوائم بيبليوغرافية، تزاوج بين المصادر المادية وغير المادية، بين الوثائق المكتوبة والشفهية، مع الانتقال من البحث في أطوار البنيات المادية إلى مستويات الإشارات والرموز، من الديمغرافيا التاريخية إلى تاريخ التصورات والتمثلات، من تاريخ الأفعال إلى تاريخ الطقوس والرموز[٢٧]. يكفي الاطلاع على أبحاث مؤرخين مرموقين، من قبيل ميشيل فوفيل وفليب أرياس وبيير شوني، رفقة جاك لوغوف، لاستقصاء ما خلفه هذا الجيل من روائع، تهم تاريخ الموت والحياة والجنس والعائلة والتغذية وغيرها من المباحث، التي تندرج ضمن أوراش التاريخ الاجتماعي والثقافي بشكل عام.

أزمة التفتت والمنعطف الجديد

معلوم أن الخطاب الحولياتي وصل إبان الثمانينيات من القرن العشرين، إلى منعطف إبستمولوجي جديد، تطبّع بأزمة وتفتت التاريخ وضياع موضوعه، بفعل استعارته المفرطة لأزياء الأنثربولوجيين[٢٨]. فانحرف التاريخ عن الشمولية والتركيب. لكن جاك لوغوف، زعيم "التاريخ الجديد" له رأي آخر، حيث اعتبر أن "كل شكل من أشكال التاريخ الجديد هو محاولة لإنشاء تاريخ كلي"[٢٩]. ومع ذلك، فإنها أزمة لم تمس فقط الخطاب التاريخي، بل ابتلت معظم العلوم والمعارف، في سياق "المنعطف اللساني النقدي"، وموضة تحليل أنساق الخطاب لسبر الواقع الاجتماعي[٣٠].

يشير المؤرخ محمد حبيدة إلى أن الجيل الرابع من الحوليات، جيل برنار لوبوتي ومجموعته، بلور منعطفا نقديا مغايرا همّ سياسات التناهج، كي تلتئم شقوق الكتابة التاريخية، ويسترجع التاريخ مكانته، من خلال حمايته من التفتت، والانحباس، والانصهار الكلي في خطابات العلوم الاجتماعية الأخرى. ثم الاعتناء بحقول الفرد والسياسة والزمن القصير، في مقابل الأوراش الرمزية والثقافية والزمن الطويل. إن عودة المؤرخين إلى البيوغرافيا، إلى الفرد، إلى السياسة، بعثت التاريخ السياسي من جديد، من رماد التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، بعدما صارت الشبكة الزمنية للمؤرخين تستهدف التاريخ المعاصر وقضايا الراهن، عكس ما كان عليه الوضع في الأجيال السابقة، حيث كانت الهموم المعرفية تتجه أكثر نحو أزمنة ما قبل الحداثة. وعودة التاريخ السياسي هذه، لم تتم بالزي الوضعاني، بل برغبة جديدة تنير الأضواء في بنيات الثقافة السياسية والأشكال الثقافية للسلطة[٣١]. وبصيغة أخرى، "الإحالة على السلطة" بتعبير جاك لوغوف[٣٢].

لقد انتعش خطاب مجلة الحوليات، بفعل قدرتها على نشر أفكارها وتصوراتها، اعتمادًا على خطة الهيمنة كما يعلن صاحب الكتاب. لا تقوم هذه الاستراتيجية على التحكم في دور النشر، لإيصال كتب التاريخ إلى المؤرخين والسوسيولوجيين، بل أيضا على تعميم المعرفة التاريخية، عن طريق وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمكتوبة، مع البحث الدائم والمستمر عن الدعم الأكاديمي من مؤسسات جامعية رائدة.

عمومًا، ما منح خطاب الحوليات قوة وأهمية أكثر بين علوم الإنسان، قدرته على المراجعة الدائمة، على إعادة الصياغة، على الابتكار المستمر، نظريًا، ومنهجيًا، ومعرفيًا، من خلال تعاقب أجياله. هذا ما جعل "عجلة البحث والكتابة لا تتوقف، وآلة النشر لا تتعطل"[٣٣].

في هذه الفسحة الإبستمولوجية، المفعمة بروح التوثيق، والمنهج، والنقد، والكتابة، ينتصر المؤلف لقضية الكتابة والسرد في التاريخ، على غرار رواد مشروع تحديث العلوم الاجتماعية، أمثال: بول فين وبول ريكور وميشال دوسيرتو وهايدن وايت. فالرهان يقتضي -يضيف محمد حبيدة-في

زمن الإجماع الإبستمولوجي بدل زمن المدرسة الفكرية، في زمن المنعطف اللساني، والدراسات الثقافية، والتأويل، وما بعد الحداثة، ابتكار أنماط حديثة من الكتابة التاريخية، تستحضر مناهج العلوم الإنسانية، وتبدع أفكارها في قوالب ونصوص أدبية، تتسم بالروح العلمية والنفس الإبداعية، بالصرامة الأكاديمية والصياغة الأدبية السلسة[٣٤].

وما دامت الكتابة حلقة رئيسة في توليد الأفكار والمعاني[٣٥]. فقد أنهى الكاتب دراسته، بمقتطفات من كتاب نقدي معبر، يحمل عنوان: "التاريخ أدب معاصر"، للمؤرخ الفرنسي الشاب إيفان جابلونكه. نقرأ منه ما يلي: "في خريطة الكتابة، توجد قارتان: القصة الروائية واللاّنص الأكاديمي. وهما معا ظهرا في القرن التاسع عشر (...) ولذلك، أقترح أن نخرج من القرن التاسع عشر هذا. فثمة قارة ثالثة تنفتح أمامنا، هي قارة الإبداع في العلوم الاجتماعية: بحث متعدد الاختصاصات، تلاقح، نص بحثي، أدب حقيقي، مغامرة فكرية مثيرة"[٣٦].

صفوة القول، إن كتاب "المدارس التاريخية" بمثابة دليل بيداغوجي للطلاب والمهتمين بالمناهج في المعرفة الإسطوغرافية. فمعلوم أن هذه الزاوية من البحث، هامشية في الإنتاج التاريخي المغاربي والعربي، رغم أنها لبنة أساسية لتحديث العملية التاريخية، إذ تساعد على إعادة التفكير في الإشكاليات والمناهج والمباحث. إن الملاحظ في أبحاث تاريخية حديثة الإصدار، "غياب المنهج، ورؤية الزمن، وبناء الموضوع"[٣٧]، ويكفي الاطلاع على بعضها لاكتشاف مكامن الخلل والضعف والقصور. فليس سويًا أن يخوض باحث في ورش تاريخي مستحدث دون أن يحيل إلى مؤسسيه. إلى أهم الإشكاليات والمفاهيم والمناهج التي اعتمدوها أو بلوروها في دراساتهم. فما أحوجنا إلى ثقافة الانفتاح على المنجز الإنساني والاعتراف به كذلك!

الهوامش

(١) فرنسوا دوس، **التاريخ المفتت. من الحوليات إلى التاريخ الجديد**، ترجمة محمد الطاهر المنصوري، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٩.

(٢) محمد حبيدة، **المدارس التاريخية، م س**، ص ١٥.

(٣) نفسه، ص ١٧.

(٤) نفسه، ص ٢٧-٢٨.

(٥) عبارة عن مجموعة من النصوص تهم التوجهات المعاصرة للمعرفة التاريخية، انتقاها محمد حبيدة من كتب ودوريات رائدة وترجمها إلى العربية. فعمل على إصدارها سنة ٢٠٠٤ تحت عنوان: "من أجل تاريخ إشكالي"، قبل أن يتوجها بطبعة ثانية سنة ٢٠١٥ في حلّة منقحة سماها "الكتابة التاريخية". انظر: محمد حبيدة، **من أجل تاريخ إشكالي. ترجمات مختارة**، القنيطرة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ٢٠٠٤. محمد حبيدة، **الكتابة التاريخية: التاريخ والعلوم الاجتماعية، التاريخ والذاكرة، تاريخ العقليات**، الدار البيضاء، أفريقيا الشرق، ٢٠١٥. أنجزت قراءة في هذا المنجز، بعنوان: "أوراش الكتابة التاريخية"، نشرت بتاريخ ٨ يونيو ٢٠١٥. يمكن الاطلاع عليها في موقع أرنتروبوس: www.aranthropos.com

(6) Charles LANGLOIS et Charles SEINGBOS, **Introduction aux études historiques**, Paris, Armand colin, 1992, p.13.

(7) Lucien FEVBRE, Combats pour l'histoire, in: **Lucien Febvre, Vivre l'histoire**, édition établie par Brigitte Mazon, Paris, Robert Laffont, 2009.

(٨) محمد حبيدة، **المدارس التاريخية، م س**، ص ٥١.

(٩) محمد حبيدة، "مؤرخون في خدمة الدولة: أحمد الناصري وإرنست لافيس، مقاربة مقارنة"، **أسطور**، ع ٧، ٢٠١٨، ص ١٧٨.

(١٠) محمد حبيدة، **المدارس التاريخية، م س**، ص ٥٥. فرنسوا دوس، **ن م**، ص. ٤٩.

(١١) محمد حبيدة، **المدارس التاريخية، م س**، ص ٥٨.

(١٢) نفسه، ص ٦٠.

(١٣) نفسه، ص ٨١.

(١٤) نفسه، ص ٦٢.

(١٥) محمد حبيدة، **الكتابة التاريخية، م س**، ص ٥٢.

(١٦) محمد حبيدة، **المدارس التاريخية، م س**، ص ٧٦.

(17) Marc BLOCH, **Apologie pour l'histoire ou Métier d'historien**, Paris, Armand colin, 1949, p. 42.

(18) **Ibid.**

(19) Lucien FEVBRE, **Ibid.**

(٢٠) تغير اسم مجلة الحوليات طيلة القرن العشرين. فمن "حوليات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي" سنة ١٩٢٩، إلى "الحوليات: التاريخ والعلوم الاجتماعية" عام ١٩٩٤، مرورا باسم "حوليات التاريخ الاجتماعي" سنة ١٩٣٩، و"مزيج التاريخ الاجتماعي" سنة ١٩٤٢، و"حوليات التاريخ الاجتماعي" سنة ١٩٤٦، و"الحوليات: اقتصاديات، مجتمعات، حضارات" عام ١٩٤٦. انظر: محمد حبيدة، **المدارس التاريخية، م س**، ص ٧٧.

(٢١) محمد العيادي، **دراسات في المجتمع والتاريخ والدين**، الدار البيضاء، منشورات مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود، ٢٠١٤، ص ٥٦-٥٧.

(٢٢) خالد طحطح، **عودة الحدث التاريخي**، الدار البيضاء، دار توبقال، ٢٠١٤، ص ٢٨.

(٢٣) عبد الله العروي، **مفهوم التاريخ**، جزآن، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، الطبعة الرابعة ٢٠٠٥، ص ١٨٩. يمكن العودة كذلك إلى مقدمة المؤرخ التونسي محمد الطاهر المنصوري في

ترجمته لكتاب "التاريخ الجديد". يشخص فيها أثر هذا الأخير على المؤرخين المغاربيين والعرب. راجع: جاك لوغوف، **ن م**، ص١٩-٢٧.

(٢٤) محمد حبيدة، "النص رقم ٢٢: التاريخ المفاهيمي. الأزمنة الثلاثة"، ضمن: **المدارس التاريخية، م س**، ص ١٧٤. هذا المقال هو في الأصل مقتطفات من تقديم أطروحة بروديل المشهورة حول المتوسط. للمزيد من التفاصيل، راجع:
Fernand BRAUDEL, **La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II (1558-1598)**, Paris, Armand Colin, 1949, Tome I, pp. 16-19.

(٢٥) محمد حبيدة، **المدارس التاريخية، م س**، ص٩٧.
(٢٦) فرنسوا دوس، **ن م**، ص ٥٢.
(٢٧) محمد حبيدة، **المدارس التاريخية، م س**، ص١٠٥.
(٢٨) فرنسوا دوس، **ن م**، ص ٥٣.
(٢٩) جاك لوغوف، **ن م**، ص ٧٩.
(٣٠) محمد حبيدة، **المدارس التاريخية، م س**، ص١١٣.
(٣١) نفسه، ص ١٥.
(٣٢) روني ريمون، "عودة السياسي"، ترجمة محمد العفاس، **مجلة أمل**، ع ٥٠، ٢٠١٨، ص١١١.
(٣٣) نفسه، ص ١٢٠.
(٣٤) نفسه، ص ١٣٤.
(٣٥) محمد حبيدة، **كتابة التاريخ. قراءات وتأويلات**، الرباط، دار أبي رقراق، ٢٠١٣، ص١٠.
(٣٦) نفسه، ص ١٣٠.
(٣٧) محمد حبيدة، **بؤس التاريخ. مراجعات ومقاربات**، الرباط، دار الأمان، ٢٠١٥، ص ٧.